محمد عبد الله عنان .. والجنة الغـارية

دكتور/ عبادة عبد الرحمن كحيلة
مدرس بكلية الآداب جامعة القـاهرة

فى سنة ١٤٩٢ كانت زفرات الملك الصغير [١] علامة فارقـة على خريطة الأندلس ، وفى سنة ١٨٩٦ كان ميلاد محمد عبد الله عنان علامة فارقة أخرى على هذه الخريطة .

حول هذا التاريخ — قبيله وبعيده — خرج الى الدنيا جيل عظيم من المصريين ، هم من ندعوهم بجيل الرواد ، وكان عنان أحدهم .

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عرفة العنـانى المعروف بمحمد عبد الله عنان بقرية بشلا من أعمال ميت غمر بمديرية الدقهليـة فى السابع من يوليو من عام ١٨٩٦ .

حصل على البكالوريا من المدرسة الخـديوية بالقـاهرة فى عام ١٩١٤ ، كما حصل على الاجازة من مدرسـة الحقوق السلطانيـة فى عام ١٩١٨ .

---

(١) أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) ٨٨٧/١٤٨٢ — ٨٩٧/١٤٩٢ آخر ملوك غرناطـة ويدعوه الأسـبان بـ Boabdil وبالملك الصـغير El Rey Chico وورد فى المصـادر القشتالية المعـاصرة أنه عنـد رحيله مفارقا غرناطة بعد تسليمها توقف عند ربوة تطل على المدينة وأجهش بالبكاء وقـد أطلق الأسبان على هذه الربوة El ùltimo suspiro Gespmoro أى زفرة المسلم الأخيرة .

عمل محاميا وعمل أيضا بالصحافة والصحافة الأدبية الى أن التحق بالوظيفة الحكومية فى عام ١٩٣٥ ، وظل بها الى أن أحيل الى المعاش فى عام ١٩٥٥ .

تزوج فى عام ١٩٣٠ آنسة نمساوية فاضلة تدعى يوهانا ، أسلمت بعد سبع سنوات وصار اسمها هناء ، وكانت هذه السيدة خير عون لزوجها فى رحلة حياته (٢) .

نشر الأستاذ عنان نحو ثلاثين كتابا فى مجالات مختلفة ، أخصها التاريخ ، وتاريخ الأندلس ، وترجم له كتابان الى اللغة الانجليزية فى بلاد الهند (٣) ، كما حاضر فى بعض المراكز العلمية بالخارج ، مثل مدرسة الدراسات الشرقية بلندن .

حصل الأستاذ عنان على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٧٧ ، وحصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى عام ١٩٧٨ ، ووسام الكفاءة الفكرية من الملك الحسن فى عام ١٩٨١ ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية ونادى القلم الدولى .

توفاه الله فى العشرين من يناير ١٩٨٦ .

حياته فى ظاهرها منبسطة لاتوجد بها نتوءات الا فى أوائلها، ففى سنة ١٩٢١ كان أحد أربعة هم مؤسسو الحزب الاشتراكى المصرى ، سلامة موسى ، محمود حسنى العرابى ، على العنانى ، محمد عبد الله عنان .

---

(٢) معلوماتنا عن حياة الأستاذ عثمان الخاصة مستقاة من حديث لنا مع السيدة الفاضلة حرمه .

(٣) مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام Decisive moments in the history of Islam Lahore 1941 . ، وترجم أيضا الى الأوردية .
Ibn Khaldun. his life and works, Lahore
ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى

عندما اختلف أمر هذا الحزب باختلاف زعمائه حول الموقف من الدولية الثالثة ، وما أعقب ذلك من ضربات وجهت اليه من قبل الحكومة الوطنيـــة الأولى ، ترك عنان الحزب الاشـــتراكى [٤] ولم يلتحق بأى من الأحزاب المصرية النـــاشئة ، وان كان يميـــل أحيـــانا الى حزب الأحرار الدستوريين ، خصوصا وقد جمعته صـــداقة بالدكتور محمد حسين هيكل (ت ١٩٥٦) الذى قدم لبعض كتبه[٥] فداوم على الكتابة فى السياسة والسياسة الأســـبوعية واشـــترك مع هيكل والمازنى [٦] (ت ١٩٤٩) فى نشر كتاب [٧] يهـــاجم صـــدقى باشـــا وحكومته فى عام ١٩٣١ .

انصرف عنان انصرافا تاما عن السياسة ، عقب التحاقه بالوظيفة فى عام ١٩٣٥ ، وفى العام التالى عقدت معاهـــدة تلتها حرب كبرى ، أسفرت عن هدوء نسبى فى الساحة الوطنية .

(٢)

يمثل الأستاذ عنان جيله على نحو دقيق ، فقـــد كان موسوعيا ، له دراسات ثرة فى التـــاريخ والأدب والسياســـة والاجتماع ، كما اكتملت لديه أدواته ، فكان يجيـــد الانجليزية والفرنســـية والألمانيـــة

---

(٤) راجع ماكتبه اليساريون بهذا الشأن ، خصوصا رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ — ١٩٢٥ . ط ٥ . القـــاهرة ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٠ ص ١٢٣ — ١٢٥ ، ٢١١ — ٢٩٦ .

(٥) مثل ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ط ١ . القاهرة لجنـــة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٠ .

(٦) ابراهيم عبد القـــادر المـــازنى كاتب وشـــاعر مصرى معروف ١٨٨٩ — ١٩٤٩ .

(٧) السياسة المصرية والانقلاب الدستورى .

والأسبانية ، وكان على دراية باللاتينية ، وأخرج أحد كتبه وهو مأساة مايرلنج بالعربية [٨] والانجليزية [٩] .

شارك عنان هذا الجيل فى خصيصة أخرى هامة ، وهى أنه لعب دورا تنويريا ، فهو رائد من رواد الفكر الاشتراكى فى مصر ، ولم يقصر همه على الترويج للمدرسة الفابية ، مثلما فعل سلامة موسى (ت ١٩٥٨) ، انما عرف بمختلف المدارس الاشتراكية ، حتى بعد أن فارق الحزب الاشتراكى ، وله أكثر من كتاب فى هذا المجال [١٠] .

على أن عنانا كان يفترق عن أبناء جيله ، أو كثرة أبناء جيله بنزوعه الى الرحلة ، ومفتاح شخصيته — اذا نحن استعرنا تعبير العقاد (ت ١٩٦٤) — هو أنه رحالة ، وقد داوم الرحلة ، حتى أعوام قليلة من نهاية رحلته الكبرى — رحلة حياته — وسفراته يصعب علينا احصاؤها ، وليست الأندلس سوى جزيرة ، كان هو أول الواصلين اليها .

ومزية الرحالة عن غيره من المسافرين ، أنه يلاحظ مالا يلاحظه هؤلاء ، وتستوقفه أشياء لاتستوقفهم ، وتستبد به رغبة حميمة نحو اقتحام المجهول ، وتقصيه الى أبعد أطرافه . وقد يكون هذا المجهول مخطوطة عربية أو غير عربية فى خزانة كتب بعيدة عن متناول الناس ، أو واقعة تاريخية ، يلفها سياج سميك من الغموض ، أو مذهبا اجتماعيا جديدا لم يكن ليحفل به أحد [١١] ، أو جزيرة نائية فى بحر الظلمات،

---

(٨) دار المعارف ١٩٤٨ .

(9) The Trajedy of meyerling 1945.

(١٠) من أهمها المذاهب الاجتماعية الحديثة ط ٥ القاهرة دار الشروق ١٩٧٣ .

(١١) ترجم الأستاذ عنان أطروحة طه حسين لدرجة الدكتوراه باسم « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، تحليل ونقد » ونشرها فى عام ١٩٢٥ .

معلومات النـــاس عنها سيما فى شرقنـــا العربى ، لاتزيد عن حفنـــة من أشعار ، وحفنة أخرى من أشجان ، من حيث كونها جنة غاربة •

وضح هذا النزوع فى كتابات عنان الأولى •

يقول فى مقـــدمة كتابه تاريخ الجمعيـــات السرية والحـــركات الهـــدامة (١٢) •

« ولم أقصـــد بكتابة هذه الفصـــول أن أثير طلعة القارىء بما تضمنت من حقـــائق وبيـــانات مدهشـــة ، ولكنى أردت — كما أردت باخراج كتابى قضـــايا التـــــاريخ الكبرى — أن أقـــدم الى الآداب العربية صنفا محدثا من المباحث التاريخية ، يقف منه شبابنا المفكر على ناحية من نواحى التـــاريخ الاجتماعى والتفـــكير البشرى ، لم يعن به حتى اليوم أحد من كتاب العربية » •

تتعدد موضوعات الكتاب من شيعة اسماعيلية ودروز وفرســـان المعبد والألبيين والماسونية الى العدمية والفوضوية والماركسية •

على أن هذه الرغبة فى اقتحام المجهول ، كان يرافقها فى الوقت نفسه ثقافة قانونيـــة ، بل وممارسة فى مجال القانون امتدت الى عام ١٩٣٥ ، يسرت لمؤرخنـــا خصيصة أخرى هامة ، وهى التحقق وتقصى الأدلة والمقـــارنة ، قبل أن يصدر حكما ما ، وهى صـــفة لازمة لرجل القـــانون ، مثلما هى لازمة للمؤرخ •

عندما نراجع كتبه ، نجد بعضها يجمع بين كونه تحليلا لقضـــايا هامة ، وبين كونه تحليلا لأحداث هامة ، مثل كتـــابة ديوان التحقيق وكتابه تاريخ المؤامرات السياسية •

---

(١٢) القاهرة ، دار الهـــلال ١٩٢٦ ص ٥ •

(١٣) كاتب ومؤرخ مصرى معروف ، ١٨٩٧ — ١٩٨١ •

والكتاب الأخير عرض شائق لبعض هـذه المؤامرات ، يناقشها المؤلف فى جوانبها التاريخية والقانونية ، ويخرج بأن المؤامرة ظاهرة تنمو طرديا مع تقييد الحريات .

(٣)

نشر الأستاذ عنان عدة من الكتب ، كان يضع خلالها قدما فى الأدب وقدما أخرى فى التاريخ ، شأنه فى هذا شأن الأستاذ على أدهم [١٣] (ت ١٩٨١) فى صوره التاريخية والأستاذ حسين مؤنس فى كتبه وكتابه .

وفى عام ١٩٤٤ أصدر الأستاذ عنان « المآسى والصور والغوامض » وهو مجموع من الصور التاريخية الشائقة ، تحرى المؤلف معها أن تكون الشخصيات جميعها حقيقية والأحداث موثقة ، رغما عما نصادفه فيها من غرابة لا تتوافر الا فى الفن القصصى ، وأسلوب المؤلف هنا دفاق جميل . ومن ألطف مافيه الكتاب عرضه لحياة لوكريسيا بورجيا [١٤] ، فبدت لنا هذه الحسناء مختلفة عما نعرفه عنها ، وعرضه لحياة القيصرة اليزابت هابسبورج [١٥] وهو نواة رائعته مأساة مايرلنج .

والمأساة تحكى قصة حب انتهت بموت الأمير رودلف ولى عهد أبيه القيصر فرانس يوسيف ١٨٤٨–١٩١٦ ومارى فتشيرا Vetsera والقصة موثقة بمراجع عديدة ، وقد سافر المؤلف الى موقع الأحداث مرتين وزار قبر الأمير ، كما زار قبر حبيبته .

فى أسلوب شاعرى جميل يقول المؤلف [١٦] .

---

(١٤) ص ٩ — ٤١ .
(١٥) ص ٢٠٧ — ٢١٧ .
(١٦) مأساة مايرلنج : ص ٦٤ .

« ولقد جبنا هذه الأرجاء غير مرة أيام الخريف المشرقة ، ونعمنا باستجلاء هذه الطبيعة الساحرة ، وزرنا قصر مايرلنج ، أو بعبارة أخرى البناء الذى أقيم فوق موقع قصر الصيد القديم ، فى منحدر نضر من الوادى ، يخفيه عن الأنظار البعيدة ، ووقفنا خاشعين أمام الكنيسة التى أقيمت فوق المكان ، الذى وقعت فيه المأساة ، واستعرضنا مع الراهبة التى جاءت لاستقبالنا تلك الذكريات المؤثرة التى مازالت تغمر هاته الأنحاء » .

الى جانب هذه الصور التاريخية ، فان لمؤرخنا مجموعة من التراجم ، ضمنها بعض كتبه ، مثل تراجم اسلامية شرقية وأندلسية، أو اختص الترجمة الواحدة بمؤلف مستقل مثل ابن خلدون وابن الخطيب والحاكم بأمر الله .

ويلاحظ على عنان فى تراجمه أنه كان يهتم بشخصيات غامضة أو مختلف فى أمرها ، أوليست لدينا معرفة واسعة عنها ، مثل الحسن الوزان وهوليو الأفريقى Leo Africanus [١٧] وهارون الرشيد[١٨] الذى يعرض عنه صورة صحيحة بعيدة عن الصورة المعروفة عند العامة ، وست الملك [١٩] التى ينصفها ويبين أثرها فى حفظ البيت الذى تنتمى اليه ، وهو يقارن بين سيرة بهاء الدين قراقوش [٢٠] فى التاريخ وبين سيرته فى القصص الشعبى ويوضح لماذا تباينت السيرتان ، وهو فى هذا الابان يستريب فى نسبة كتاب الفاشوش الى ابن مماتى .

ومن تراجمه الممتعة ترجمته للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦/١٣٧٤) ولا نعلم أحداً سبقه الى الكتابة عن هذا العلامة ،

---

(١٧) ص ٣٥٤ — ٣٧٢ .
(١٨) ص ١٠ — ٣٠ .
(١٩) ٣١ — ٣٧ .
(٢٠) ٨٠ — ٨٤ .

وهو يتعرض لحياته وتراثه الفكرى ككاتب وشاعر ومؤرخ وجغرافى، ويأتى بجمل من تراجمه ووسائله وقصائده ، بل ويثبت مخطوطات قصيرة لم يسبق نشرها .

ورغما عن حب عنان لابن الخطيب واعجابه به لدرجة أن جعله رصيفا لابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦) بل ويبزه أحيانا [٢١] ، فانه فى تحليله لشخصيته وهو تحليل متزن ، يوضح بعض صفاته ومنها الملق ونكران الصنيعة وشغفه بجمع المال وغروره ونزوعه الى الاستبداد والحقد ، لكنه يقرر أنه مات مظلوما، فقد نسب اليه خصومه المنافسون له تجديفا فى حق الله تعالى وفى حق نبيه الكريم [٢٢] .

يستطرد المؤرخ فيتحدث عن مصرع ابن زمرك (ت٧٩٧/١٣٩٥) تلميذ ابن الخطيب وربيبه وخصيمه الذى صار أكبر الساعين فى نكبته ، كما يشير الى اعادة الاعتبار الى ابن الخطيب فى وطنه غرناطة Granada بعد خمسين عاما لمصرعه [٢٣] .

(٤)

هذا وقد اختص المؤرخ مصر بعدة من كتبه .

فى كتابه عن الحاكم بأمر الله (٣٨٦/٩٩٦ — ٤١١/١٠٢١) يحاول أن يستجلى الغموض الذى أحاط بشخصه ، ويذهب الى أنه كان يتتبع الدعوة الى تأليهه بعين الرضا [٢٤] ، وان كان يرى فى

---

(٢١) لسان الدين بن الخطيب . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٠٣ .

(٢٢) المرجع نفسه ص ١٦٩ — ١٧٣ .

(٢٣) المرجع نفسه ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(٢٤) ط ٣ . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٢٠٥ وما بعدها ، ص ٣٠٤ .

تصرفاته التى قـد تبدو شاذة ايجابيات ، تهدف الى تحقيق غايات لاريب فى حكمتها وسموها [٢٥] .

وفى كتابه عن الخطط المصرية ، يتتبع هذه الخطط وأصحابها منذ ابن عبد الحكم (ت ٨٧١/٢٥٧) حتى على مبارك (ت ١٨٩٣/١٣١١) الى جانب بحوث فى تاريخ مصر حتى نهاية العصر العثمانى ، يتصل معظمها بجوانب غامضة أو خلافيـة . ويتضـح من الكتاب اعتزازه بهذا التاريخ ، ويأسف لأن بعض مصادره مازال مخطوطا ، وهو يعد الخطط ابتكارا مصريا خالصـا ، ويعـد ابن عبـد الحكم منشئـها الأول [٢٦] .

وفى كتابه عن المؤرخين المصريين ، يتنـاول ستة عشر مؤرخا ، ابتداء بعبد الرحمن بن عبد الحكم وانتهـاء بعبـد الرحمن الجبرتى (١٢٤٠ / ١٨٢٥) ، وقد اهتم بتراث هؤلاء المؤرخين ومنهجهم فى البحث أكثر من اهتمامه بحياتهم نفسها .

ومن أطرف مافى الكتاب مقارنته بين منهج السخاوى (ت ٩٠٢/ ١٤٤٩٦) فى تحليله لشخصياته وتصويره البارع لها ونقـده اللاذع وزهـوه ، بالنـاقد الفـرنسى والمؤرخ سانت بيف Sainte Beuve (ت ١٨٦٩) [٢٧] .

* * *

(٥)

اذا انتقلنـا الى منهج عنان التـاريخى ، نلاحظ عليه حيـدته وموضـوعيته التى تعود الى فترة باكرة ، ففى عرضـه لفكر الشيعة

---

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٧٣ .
(٢٦) ط ٢ ، القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ص ٣ — ٥ .
(٢٧) ط ١ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٩ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

الاسماعيلية ، يراجع المصادر السنية الخصيمة بقدر من التحفظ [٢٨] ورغما عن اختلافه مع الماركسيين ، فانه يشيد بالثورة الاشتراكية فى روسيا ، وما حققته من انجازات ، وسط ظروف طبيعية قاسية وحملات معادية ضدها وحصار [٢٩] • وهو فى عرضه لقضية دريفوس Dreyfus ينوه بما حاق بهذا الضابط اليهودى من عنت ، ويسهب فى ذكر تفاصيل القضية [٣٠] ، التى استثمرت فيما بعد لصالح الحركة الصهيونية •

أما ديوان التحقيق ، وما أسفر عنه من ظلم فادح للمسلمين والمسلمين المنتصرين ، فانه لا يصدر حكمه على هذا الديوان بداءة ، انما يترك الوثائق والوثائق النصرانية وحدها تتكلم يقول [٣١] ولما كان الرواية المجردة لهذه المأساة تثير من تلقاء نفسها كثيرا من الأسى والشجن ، ففى وسع القارىء أن يقدر أثناء تلاوتها ، ما آنست فى كتابتها من بواعث الانفعال والتأثير ، غير أنى اجتنبت التعليق مااستطعت ، وتركت القول لمؤرخى الغرب أنفسهم ، معتقدا أن الوثائق تغنى عن كل تعليق » •

المؤرخ الى جانب ذلك يعنى بمصادر بحثه ، وتعقيبها فى مظانها، ولا يدخر وسعا فى اقتنائها • وجملة ماكتبه عن المؤرخ المصرى محمد ابن أبى السرور البكرى [٣٢] (ت ١٠٩٠/١٦٥٠) هو من خلال كتبه، التى مازالت مخطوطة • وهو أول من استفاد من السفر الخامس

---

(٢٨) تاريخ الجمعيات السرية ص ٥٦ حاشية ١ .

(٢٩) المرجع نفسه ص ٢٠٩ .

(٣٠) ديوان التحقيق ص ٥٠٤ ــ ٥٣٧ .

(٣١) المرجع نفسه ص. م.

(٣٢) راجع فى هذا الشأن الفصل الخاص بهذا المؤرخ فى « مؤرخو مصر الاسلامية » .

لمقتبس ابن حيان (ت ٤٦٩/١٠٧٦) فور العثور عليه بالخزانة الملكية فى الرباط [٣٣] • ومن أجل دراسة مفردات تراث ابن الخطيب ، قام برحلة خاصة الى أسبانيا وانجلترا والمغرب والجزائر ، كان من آثارها أن عثر فى مكتبة الجزائر الوطنية ، على مقامة وحيده له ، لم تكن معروفة من قبل [٣٤] وعثر فى مكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، على أوراق متناثرة من مخطوط الاحاطة ، وعلى هوامشها تأشيرات للمقرى (ت ١٠٤١/١٦٣١ صاحب النفح [٣٥] ، على أن عنانا فى كتبه التاريخية البحتة ، ومنها موسوعتنا الأندلسية — لم يعن على نحو واضح بالتحليل الاجتماعى فى دراسة التاريخ ، وقد يكون ذلك غريبا على مؤرخنا ، لأنه كان على دراية بهذا المنهج ، بحكم ممارسته للعمل السياسى فى باكر شبابه وليس لدينا غير تفسير وحيد ، هو أن هذا المنهج حديث ، ولم يتنبه اليه مؤرخونا ، الا منذ أربعين سنة ، ثم ان أدواته لم تستكمل بعد ، خصوصا فيما يختص بتاريخنا الوسيط ، ولم تتضح معالمه ، وان حاول البعض أن يتعسف مع النصوص ، ليجعلها تنسجم مع أفكاره المسبقة •

ولعنان فكرة هامة ، أدار حولها كتابه مواقف حساسة فى تاريخ الاسلام ، وتتضح فى موسوعته الأندلسية ، وهى فكرة الصراع بين الشرق والغرب ، أو بين الاسلام والنصرانية ، وهو يعتقد أن هذه الفكرة ويدعوها بالصليبية ، ظلت حية عبر العصور ، بما فيها عصرنا الحديث ، وهى تشتد وتضطرم كلما بدت فورة اسلامية جديدة [٣٦] •

ونسافر مع المؤرخ الى الأندلس •

* * *

(٣٣) تراجم اسلامية شرقية واندلسية ط ٢ . القاهرة ، الخانجى، ١٩٧ ص ٢٧٨ .
(٣٤) لسان الدين بن الخطيب ص ٥ .
(٣٥) تراجم اسلامية ص ٣٧٧ .
(٣٦) مواقف حاسمة ط ٤ . القاهرة ، الخانجى ١٩٦٢ ص ٣—٦ .

(٦)

نبـــه من جيل عنان اثنان من الفضلاء اقتحما بالأندلس أســـوار الجامعة ، همـــا الأستاذ أحمد ضيف (ت ١٩٤٥) والأستاذ عبدالحميد العبادى (ت ١٩٥٧) اختص أولهما بالأدب ، واختص الآخر بالتاريخ ومع ما كان للفـــاضل الآخر من أياد ، حدثنـــا عنها بعض معاصريه، فقـــد برز كمحاضر ، الا أن كتابه المجمل [٣٧] ، وصل الينـــا سماعا عنه ، وبه هنـــات ليس هنا مجالها ، وربما كان العبادى الكبير يدخر جهده لاعداد عباديين آخرين [٣٨] كان لهما اسهامها الواضـــح بالثغر الاسكندرى ، واختص أحدهما الأندلس باهتمامه .

على أن الريادة للأندلس داخل الجامعة تخطو خطوات أوسع مع أستاذين جليلين ، أحدهما وان كان مقلا مجيـــدا فى انتـــاجه ـــ وهو الأستاذ عبد العزيز الأهوانى (ت ١٩٨٠) فان له تلامذة على اتســـاع العالم العربى ومريدين ، والآخر وان كان مكثرا مجيدا فى انتـــاجه ـــ وهو الأستاذ حسين مؤنس ـــ فلا له تلامذه ولا مريدون .

أين مكان الأستاذ عنان من الريادة للأندلس .

ان مكان الأستاذ عنان فى تاريخ الأندلس ، هو مكان عبدالرحمن الرافعى (ت ١٩٦٦) فى تاريخ مصر الحديث [٣٩] .

---

(٣٧) ط ١ . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

(٣٨) الأستاذ مصطفى عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ اليونانى ـــ الرومانى بجامعة الاسكندرية والأستاذ أحمد مختار العبـــادى أســـتاذ التاريخ الاسلامى ـــ الأندلس على نحو خاص ـــ بجامعة الاسكندرية .

(٣٩) راجع مقالنـــا : عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة القوميـــة « مجلة الفكر المعاصر عدد ٢٣ يناير ١٩٦٧ » .

فى سنة ١٩٢٤ أصدر محمد عبد الله عنان كتابا بعنوان « تاريخ العرب فى أسبانيا أو تاريخ الأندلس » [٤٠] ، على أنه يتضح من المقدمة أن تأليفه يعود الى خمس سنوات سابقة ، عقيب دراسته القانونية ، وهو مايتضح من المقدمة .

يقول [٤١] : ووافق استعدادى لتنظيمها واعدادها للنشر أياما تكونت فيها وحدة مصر الوطنية ، وجاشت بالقلوب آمال كبيرة » .

والكتاب يتناول تاريخ العرب فى أسبانيا حتى نهاية دولة بنى حمود الادارسة فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر، وفى الصفحات الأخيرة منه يأتى بطرف من النظم السياسية والادارية (يدعوها الاجتماعية) والعلمية والثقافية ، وينتهى بخاتمة ، وقد حرص بين حين وآخر على أن يؤرخ للممالك النصرانية ، المعاصرة لملكة الاسلام ، كما كان يوثق أخباره فى أحيان كثيرة ، ويقارن بين الروايات بعضها وبعض ، وبخاصة الروايات النصرانية ، ويأتى بحواش شارحه لما يرد فى المتن .

تمضى سنوات يصدر المؤرخ خلالها مجموعة من الكتب ، يعبق بعضها بريح الأندلس ، وترجم كتاب اشباخ J. Aschbach عن تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين [٤٢] ونشره فى عام ١٩٤٠ ، وأضاف اليه طائفة من الهوامش والتحقيقات والشروح وفهرسا للاعلام .

---

(٤٠) القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٤ .

(٤١) يشير ضمنا الى الثورة المصرية ١٩١٩ .

وقد سبق هذا الكتاب كتاب آخر ترجمة عنان عن الانجليزية وأصدره وهو بعد طالب بمدرسة الحقوق بعنوان تاريخ أوربا الحديث ، القاهرة مطبعة السعادة ١٩١٥ ووصف نفسه على الغلاف بأنى حقوقى وجعل اهداءه الى الأمة المصرية .

(42) Geschte Spaniens Zu Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden. Frankfurt am main 1833.

على أنه ابتداء من هـذا العـام تفرغ عنان على نحو أسـاس لموسوعته العظيمـة « دولة الاسـلام فى الأنـدلس » التى بدأ فى اخراجها فى عام ١٩٤٢ ، وجاءت فى سبعة مجلدات تضم أربعة آلاف صـفحة .

* * *

(٧)

دولة الاسـلام فى الأندلس هى موسوعة عنان وعمل حياته ، أرخ خلالها لفترة من تاريخ الاسـلام تمتد نحو ألف عام ، منذ قبيل الفتح ، حتى الطرد النهائى للمسلمين فى مطالع القرن السابع عشر .

حدد عنان المنهج الذى اتبعه فى هذه الموسوعة بقوله : (٤٣)

« هذا وقـد راعيت فى سـائر فصـول هذه القصة الأندلسية المشجية أن أسلك سبيل التوسط المعتدل بعيـدا عن الايجـاز المخل ، بعيدا فى الوقت نفسه عن الأسباب والتفاصيل الكثيرة ، الا ما دعت اليه المنـاسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصـا خلال ذلك كله ، على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى اطـارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن بعيدا كل البعد عن التـأثر بالعاطفـة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وانى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك ى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال فى كتابة هـذه الصـفحات المشرقة المؤسية معا من تاريخ الأمة الأندلسية » .

ولمـا كان المؤرخ يكتب عن فترة طويلة حافـلة ومصطخبة ، فانه كان يقسم كل عصر الى عصور أصغر تبعا لأصحاب السيطرة ، ويتناول

---

(٤٣) ع ا ق١ ط٤ . القاهرة ، الخانجى ، ١٩٦٩ ص١١ .

الأحداث المتصلة بعصر الأمير أو الخليفة أو الملك ، وهى فى مجملهـا أحداث سياسية ، من ثورات فى الداخل وحروب فى الخـارج • ثم يأتى بتحليـل لشخصيةهـذا الأمير ، ويثنى بالحـديث عن الجوانب غير السياسية ، مثـل الادارة والمـال والنظـام الحربى والحـركة العمرانية من مساجد وقصور وغيرها، وينتهى بالأحوال الاجتماعية والثقافية وجملة من نبه فى هذا الابان ، ولا يهمل الحديث عن الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، وصلات هذه الممالك بالأندلس •

على أن المؤرخ عـدل فى هـذه الخطـة ، فيما يختص بعصر الطوائف ، بسبب تعـدد السيادات ، بتعدد الدول والدويلات وتداخل تواريخها ، بما يجعل عملية السرد مملة ومتكررة وقد عالج المشكلة بأن مهد لظهور الطوائف ، ثم قسم دولها الى مجموعات عربيـة وبربرية وصقلبية ، وكان يتتبع ممالكها مملكة مملكة منذ بدايتها حتى نهايتها على أيدى المرابطين، ثم يتناول معركة الزلاقة Sagrajas والفتح المرابطى، ويتحدث عن الممالك النصرانيـة خلال القرن الحـادى عشر ، وينتهى بخواص عصر الطوائف السياسية والاجتماعيـة والحضـارية ويأتى بوثائق وملحقات •

أما كتابه الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال ، فالى جانب كونه كتـابا فى الآثار ، فمـن الممكن أيضـا أن يدخل فى أدب الرحلات ، وأسلوب المؤلف الممتعيجعله أشبه بسياحة تاريخية ،تذكرنا بالأستاذ حسين فوزى فى سندبادياته ، ولا يصطدم القارىء معهـا بمصطلحات أثرية جامدة ، انما هى تتسلل برفق الى وجدانه •

والمؤلف لا يكتفى بالحديث عن الآثار الأندلسية ، أى الآثار التى تعود الى فترة السـيادة العربيـة ، انمـا يتطرق أيضا الى الآثار المدجنية أىالآثار التى أقامها المدجنون المسلمون للسادة الجدد ، فضلا عن اشاراته الحديثة الهامة ، ويتتبع الآثار مدينة مدينة ، ويأتى بطرف

من تاريخها الاسلامى ، بل الرومانى والقوطى انوجد ، وما ورد بشأن الأثر فى المصادر الأدبية النصرانية •

وجرى المؤرخ على أن يضم الى موسوعته خرائط توضيحية بل رسوما تخطيطية للمعـارك الكبيرة ، مثل الزلاقة والارك Alarcos والعقـاب Las Navas De Tolosa ومصورات لبعض أبطـال الموسوعة وآثارها ، وفى نهـاية كل مجلد يأتى بكشـافات للأعـلام والجماعات والأماكن ، وفهارس للكتب والأشعار والرسائل ، الى جانب وثائق هامة ، بعضها مازال مخطوط •

* * *

(٨)

وبطبيعة الحال فقـد كان على المؤرخ أن يراجع مصادر ، تبدو أحيـانا متباينة ، وقـد عالج المشـكلة بأنه كان يناقش الروايات المختلفة عن الحادثة الواحدة ، ويأخذ فى المتن بما يراه صحيحا منها ، ولا يهمل مايراه أقل وثاقة ، فيورده بالمتن أو يضيفه الى الحواشى ، أما الأخبـار الغريبـة التى يصعب تصديقها ، وان كان فى غرابتهـا ما يؤيد الحادثة ، فانه يجعلها فى الحواشى •

اذا شئنا التفصـيل نجد المؤرخ لاينحاز الى الرواية العربية ، من حيث أنها عربيـة ، وكثيرا ما ينتقدها بل ويرفضها ، حتى وان كانت الرواية النصرانيـة تجاريها ، فرغما عن اتفاق الروايتين فى المبالغة من عدد القتلى النصـارى فى معركة أقليش Uclés ١١٠٨/٥٠١ ، الا انه بعد مناقشة طويلة يصـل الى تقدير أقل (٤٤) ، وهو ينفى لقاء مهدى الموحدين بالامام الغزالى (ت ١١١٢/٥٠٥) هـذا اللقاء الذى

---

(٤٤) دولة الاسلام فى الأندلس ع ٣ ق١ ط١ ١٩٦٤ ص ٦٥ •

يستند اليه هؤلاء فى شرعية قيامهم على المرابطين ، ولا يأبه باتفاق المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة على ذلك (٤٥) .

وكثيرا ما كان المؤرخ يضطر الى الاعتماد على الرواية النصرانية على نحو أساسى ، لأن الرواية العربية ضنينه فى أحداث مثل بلاط الشهداء Tours-Poitiers (٤٦) وغزوات المسلمين فى غالة Gallia (٤٧) والمستوطنة الاسلامية فى فراكسينيتوم Fraxinetum (٤٨) ويفسر اقتضاب الرواية العربية لمعركة البلاط ١١٤/٧٣٢ ببلاغة الحادثة وروعتها ، ومثل ذلك فعله بالنسبة للقرن الأخير من تاريخ الأندلس وما تلاه .

على أن المؤرخ فى تصويره لفتنة الشهداء بقرطبة ، لا يترك الرواية النصرانية طليقة ، انما هو يحال الدوافع الى هذه الفتنة ، ويفند دعاوى سيمونيت F. J. Simonet (٤٩) وغيره من المتعصبين (٥٠) .

ومن أن المنصور العامرى (٣٦٨/٩٧٨ — ٣٩٢/١٠٠٢) لم يصادف هزيمة واحدة فى حملاته المتعددة ضد نصارى الشمال ، فان المؤرخ لايستنكف عن الاتيان بالرواية النصرانية التى تدعى هزيمته

---

(٤٥) المرجع نفسه ع٣ ق١ ص ١٦١ .

(٤٦) المرجع نفسه ع١ ق١ الفصل السادس ص ٩٢ — ١١١ .

(٤٧) المرجع نفسه ع١ ق١ الفصل الخامس ص ٧٧ — ٩١ .

(٤٨) المرجع نفسه ع١ ق٢ الفصل الثالث ٤٦٤ — ٤٧٥ .

(٤٩) أنظر ما ورد بهذا الشأن فى كتابه

Historia de los Mozárades de Espana Madrid 1897

الفصول من الثالث عشر الى الحادى والعشرين .

(٥٠) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ ق١ ص٢٦٧ وما بعدها .

أو عدم ظفره فى آخر معـاركه سنة ١٠٠١/٣٩١ • وقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين الى تصـديق هذه الرواية ، لكن عنانا يفندها ، لأن الملوك النصارى الذين نسب اليهم اشـتراكهم فى المعركة كانوا قـد ماتو جميعـا قبل هـذه المعركة بسنوات ، ثم ان الرواية الاسـلامية لا تذكر هـذه الهزيمـة المـدعاة للمسلمين ، فى حين ذكرت هزائم أخرى لهم (٥١) •

الى جانب ذلك ، فقد كان لثقافة المؤرخ الواسعة ، أثرها الوافر فى موسوعته ، فأفاد بمناهج علم النفس فى تحليله لشخصية المهـدى ابن تومرت (ت ٥٢٤/١١٣٠) ، ويستخرج من كونه حصورا لا يأتى النساء ، مايفسر قسوته وظمأه الى سفك الدماء (٥٢) •

فى هـذا الابان توصل عنان الى بعض الحقـائق التى كانت محجوبة قبلا ، أو الى تدعيم لها فى حال سبق كشفها ، واذا كان ليفى بروفنسال هو أول من توصل — من خلال نص فى البيـان المغرب — الى حقيقـة زائدة Zaida أو سـيدة Ceida حظيـة الفونسو السادس ملك ليون León (١٠٦٥ — ١١٠٩) وأكد أنها لم تكن ابنه المعتمد بن عيـاد « وانما كانت كنته »فان عنانا يعثر على نص آخـر فى المعيـار المغرب يؤكد هذه الحقيقة » (٥٣) •

اعتمد المؤرخ اعتمادا فائقا على المصـادر الأصلية ، وبخاصـة المجموعة المعروفة بأسبانيا المقدسة España Sagrada ، وتضـم حوليات هامة مثل حولية ايسيدور الباجى Isidorus Pacensus

---

(٥١) المرجع نفسه ع١ ق٢ ص ٥٦٣ — ٥٦٦ .

(٥٢) المرجع نفسه ع٣ ق١ ص ١٩٢ .

(٥٣) راجع مناقشة الأستاذ عنان لهذه القضـية فى المرجع نفسـه ع٢ ص ٣٤٥ — ٣٤٨ .

وحولية روردريك الطليطلى Rudericus Toletanus وحولية الفونسو العالم El Sabío ، كما كان له ولع خاص بالوثائق المعاصرة مثل الوثائق العربية والمستعربية والمدجنية والقشتالية ، وغيرها من الوثائق المبثوثة فى دور المحفوظات العامة بمجريط Madrid وشنت منكش Simancas وبرشلونة Barcelona وبلنسية Valencia وغرناطة وبنبلونة Pamplona وسرقطة Zaragoza وخزائن الكتب فى الاسكوريال Escurial والفاتيكان والمعهد المصرى للدراسات الاسلامية والقرويين والرباط وغيرها .

أما عن المصادر العربية ، فقد كان يتعقبها مخطوطة ومنشورة ، وربما كان عنان هو أول من نوه من المحدثين بالمؤرخ الكبير أبى مروان ابن حيان ومقتبسه ، وقد تعقب أسفاره فى بقاع شتى ، وانتفع بقسم من السفر الثانى كان فى حوزة ليفى بروفنسال وضاع بعد ، وما يرد عند عنان بخصوص هذا القسم هو مصدرنا الوحيد حتى الآن . ومن نقوله الهامة عند كتاب الحكم (١٨٠/٧٩٦ — ٢٠٦/ ٨٢٢) الى الكور بخصوص ثورة الربض (٥٤) ، وكذا كتاب عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦/٨٢٢ — ٢٣٨/٨٥٢) الى ملك الروم مع الشاعر الغزال (ت ٢٥٠/٨٦٤) وتفاصيل السفارة (٥٥) .

ومن المؤرخين المحدثين عاود مؤرخنا دوزى R. Dozy وليفى بروفنسال ومنندیث بیدال R. Menedez Pidal وسيمونيت وبيرا J. Ribera وجونثالث بالنثيا A. Conzález Palencia وكوديره F. Codera وغيرهم بل انه يعاود كوندى J. A. Conde

---

(٥٤) المرجع نفسه ع١ ق١ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٥٥) المرجع نفسه ع١ ق١ ص ١٦١ — ١٦٣ .

الذى حظى بنقد لاذع من لاحقيه [٥٦] ويقرر رمزية هـذا المؤرخ فى كونه أول جهد غربى يعتمد على مصادر عربية أبدى خلالها قدرا كبيرا من الحماسة للعرب والاشـادة بهم ، ويصدر فى بعض المواطن أحكاما قاسية على أمته ومواطنيه ، وبخاصة سياستهم بعد سقوط غرناطة[٥٧]

الى جانب هذه المصادر ، فقد توافر لمؤرخنـا مصدر آخر ، وهو رحلاته العديدة الى مسرح الأحداث ، وهو يتأمل الصخرة المنيعة فى كوفادونجـا Coca Donga هـذه الصخرة التى تـكسر عندها المـد الاسلامى الأول [٥٨]، ويزور شنت ياقب Santigo de Compo stela ويتنفس الجـو المشبع بالجـلال والوقـار [٥٩] ، ويتملى أطـلال الزهراء [٦٠] ويتحسر على البقيـة المشوهـة من قصر الجعفـرية فى سرقسطة [٦١] ، ويترجم على المعتمد فى مثواه بأغمات [٦٢] ويحج الى مكة المهـدى فى تينملل [٦٣] ، ويعيش الهزيمة المروعة فى العقاب ، ويعثر على سهام خلفهـا أبناء قومه وراءهم [٦٤] أما مملكة غرناطـة القديمة فقد كتب يقول : [٦٥]

---

(٥٦) راجع ماكتبه دوزى عن كوندى فى مقدمة كتابه

Spanish Islam, A History of the Moslems in Spain. Trans. by F. G. Stokes. London, Cass 1972 p. XXXV.

(٥٧) دولة الاسلام فى الأندلس ع ٤ ص ٥٠٦ ، وانظر أيضا مواقف حاسية ص ٣٣٢ .

(٥٨) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ ق١ ص ٢١١ .

(٥٩) المرجع نفسه ع١ ق١ ص ٢٢١ .

(٦٠) المرجع نفسه ع١ ق٢ ص ٤٢٢ .

(٦١) المرجع نفسه ع٢ ص ٢٨٣ .

(٦٢) المرجع نفسه ع٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٦٣) المرجع نفسه ع٣ ق١ ص ٤ .

(٦٤) المرجع نفسه ع٣ ق٢ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٦٥) المرجع نفسه ع ٤ القاهرة ط ٣ ، الخانجى ١٩٦٦ ص٨ .

« ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الأحداث ، وهذه المشاهدات العديدة للديار والربوع أعمق الأثر فى نفسى وفى ذهنى وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر حين تدوين الحوادث وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أننى كأنما قد عشت فى تلك الأيام وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصائرهم » .

* * *

(٩)

اذا نحن تتبعنا المؤرخ فى موسوعته ، نجده يتعاطف مع الأندلسيين ، بل ينحاز اليهم ففى تحليله لشخصية عبدالرحمن الداخل (١٣٨/٧٥٥ — ١٧٢/٧٨٨) يصفه بالميكافيلية ، الا أنه يتلمس الذرائع له [٦٦] ، بل ويتلمسها للمنصور بن أبى عامر لدى قتله ولده ، ويقرر أن هذا الولد لم يكن ليتورع عن قتل أبيه فى حال نجاح مسعاه [٦٧]، ويقول : [٦٨] لعل الاسلام فى شبه الجزيرة الأسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور وتفانيه فى الذود عن دينه واعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيما أخلص فى خدمتها وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها وسحق عدوها وتحقيق أمنها ورخائها » .

عندما يقع الصدام بين الأندلسيين المرابطين ، يوالى الأندلسيين، ويقسو على يوسف بن تاشفين (٤٦٢/١٠٦٩ — ٥٠٠/١١٠٦)

---

(٦٦) المرجع نفسه ع١ م ١ ص ١٩٤ .

(٦٧) المرجع نفسه ع١ م ٢ ص ٤٥٠ ، ٥٥٠ — ٥٥١ .

(٦٨) المرجع نفسه ع١ م ٢ ص ٥٦٩ .

لقسوته عليهم ، ورغما عمـا قيل من اتصال المعتمد (١٠٦٩/٤٦١ ـ ١٠٩١/٤٨٤) بالنصارى فانه يدافع عنه ، وينوه بدعوته الى الوحـدة بين المسلمين بعـد سقوط طليطلة ، وينوه أيضا ببسالته فى الزلاقة، ويشير الى أن بواعث اقتحام المرابطين لشبه الجزيرة لم تكن دينيـة فقط ، وانما كانت دنيويه قبل كل شيء ، ويتساءل عن ضرورة أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، هذه البطشة ، ويعامل المعتمد وأسرتهذه المعاملة ، وكان يكفى فى حال عقابه أن ينتزع من ملكه ويعتقل [٦٩] .

هذا كله فى عبـارة أدبية راقية ، تذكرنا بويلز وماكولى وجبون، بحيث يمكن أن نتعـامل مع الموسوعة الأندلسية ، على أنها رواية أو دراما روائية ، عقدتها الصراع الدائم والدائب بين أسبانيا النصرانية وبين أسـبانيا الاسـلامية ، ذلك الصراع الـذى يـدعوه الأسـبان بالاسترداد ولحظة التنوير هى النهـاية الحزينـة ، بطرد العرب من أسبانيا لكن عنانا يدنى من قساوة هـذه النهاية بما شنه الأندلسيون المطرودون من حرب مضادة مع الأخوين عروج وخير الدين المعـروف بذى اللحية الحمراء Barbarosa [٧٠] كما يدنى من حدة هـذه النهاية أيضا بما خلفـه المسلمون وراءهم من آثار باقيـة فى أسبانيا والبرتغال ، تعطى الاحساس بتواصل تاريخهم عبر الزمان .

* * *

(١٠)

فى عمل عملاق محلق ومحدق يكون من الطبيعى أن تقع هنات ،

---

(٦٩) المرجع نفسه ع ٢ ص ٣٦٥ ، وانظر أيضـا تراجم اسـلامية ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

(٧٠) راجع ماورد بشـأن جهـاد الأندلسيين والأخوين بربروسا المرجع نفسه ع ٤ الفصل الأول من الكتاب الرابع ٣٧٨ ـ ٣٩٢ .

لاتنقص بحال من روعته ، فالمؤرخ يصدق رواية ابن خلدون [٧١] عن عزم موسى بن نصير أن يلحق ببلاد الشام عن طريق القسطنطينية[٧٢] وهذا فرض بعيد ، لاتدعمه ديناميات الفتح الاسلامى ، وهو يجعل منصب القومس Comes لادارة شئون أهل الذمة من نصارى ويهود [٧٣] ، والصحيح النصارى فقط لأن اليهود كان لهم رئيسهم المستقل ويدعى الناجد [٧٤] ، أما يوسف الفهرى آخر ولاة الأندلس فلن يكون ابنا لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى المتغلب على افريقية ــ كما يذهب عنان [٧٥] ــ والصحيح أنهما ينتميان الى الدوحة نفسها التى تصلهما بعقبة بن نافع •

على أن أكبر هذه الهنات هى تركيز المؤرخ على التطور السياسى وحده ، الأمر الذى حفزه فى موسوعته الثرة الى أن يمضى بتاريخه للأندس فى عصرى المرابطين والموحدين ، فيؤرخ أيضا للمغرب المعاصر لهذه الرحلة ، من حيث أن القطرين كانا يخضعان على الاجمال لسيطرة سياسة واحدة ، وكان أحرى به أن يقصر جهده على الأندلس فحسب هذا الاحساس الجارف بالتطور السياسى أدى بالمؤرخ الى أن لايعطى الاهتمام الكافى للتطور الاقتصادى ــ الاجتماعى ، وهو فى تحليله للفتنة التى عمت أقطار الأندلس فى أواخر عصر الامارة ، وبلغت أوجها على يدى عمر بن حفصون (ت ٣٠٥/٩١٨) [٧٦] لا يستفيد

---

(٧١) كتاب العبر بولاق . ج ع ص ١١٧ .

(٧٢) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ ق١ ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٧٣) دولة الاسلام فى الأندلس ع/م ١ ص ٢٥١ ، ع ٤ ص٦٧ .

(٧٤) راجع أطروحتنا لدرجة الدكتوراه المعاصرون فى الأندلس

(٧٥) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ م ١ ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(٧٦) المرجع نفسه ع١ م ١ ص٢٨٨ وما بعدها .

من نص ابن الخطيب [٧٧] الخاص بأسبابها مع أنه يأتى به كما يغفل ما ورد متناثرا فى الحوليات [٧٨] من مجاعات تكررت فى عهد الأمير محمد (٢٣٨/٨٥٢ ــ ٢٧٣/٨٨٦) ولم يحسن السياسة ازاءها ،فضلا عن اشتعال العصبية عند العرب [٧٩] ــ سيما الشامية القيسية ــ وتبدو الفتنة وكأنها طموح أفراد يتطلعون الى السلطة فحسب .

أما عن سقوط الخلافة الأموية ، ويخصه بفصلين [٨٠] فى عصره الأول ، فهو سرد متصل لوقائع ماجرى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول سنة ٣٩٩/١٠٠٩ حتى نهاية دولة بنى حمود ولا نعرف ماهى الأسباب الكامنة وراء السقوط ، على أنه يعاود هذا الموضوع فى بداية عصر الطوائف [٨١] ، ويحدده فى صراع العصبيات من عربية وصقلبية وبربرية .

وفى حديث المؤرخ عن خواص عصر الطوائف ، يشير الى رسالة هامة للكاتب المعاصر ابن حزم (ت ٤٥٦/١٠٦٤) [٨٢] ينتقد فيها

---

(٧٧) أعمال الاعلام تحقيق ليفى بروفنسال . بيروت دار المكشوف ١٩٥٦ ص ٣٥ ــ ٣٦ .

(٧٨) ابن القوطيه تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق ابراهيم الأبيارى القاهرة ١٩٨٢ ص ١٠٠ .

ابن حيان : المقتبس . س ٢ ، تحقيق محمود مكى . بيروت دار الكتاب العربى ١٩٧٣ ص ٣٤٣ .

(٧٩) ابن حيان : المصدر نفسه س ٣ . نشر انتونيا ، باريس ١٩٣٧ ، ص ٣ ، ٦٦ .

(٨٠) دولة الاسلام فى الأندلس ع١ م٢ ص ٦٤٢ ــ ٦٧٧ .

(٨١) المرجع نفسه ع ٢ ص ١١ ــ ١٢ .

(٨٢) رسالة التلخيص (فى الرد على ابن الثغريله اليهودى ورسائل أخرى) تحقيق احسان عباس. القاهرة ١٩٦ ص ١٧٣ــ١٧٤ وما بعدها.

حكام عصره [٨٣] ، هذه الرسالة مهمة ، ويمكن أن تستخرج منها معلومات مفيدة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لهذا العصر ، لكن المؤلف يكتفى بأن يستخرج مايشى بالمغارم الفادحة التى فرضها ملوك الطوائف على شعبهم .

كان من الأوفق للمؤرخ أيضا أن يبدأ موسوعته باحاطة جغرافية لشبه الجزيرة الأندلسية وهو ما أهم ابن الخطيب [٨٤] فى تأريخه لغرناطه ، وهذه ضرورة لابد منها للتعرف على الأرض التى استحرت بها هذه الملحمة الأندلسية .

على أن لمؤرخنا عذره الواضح فى التركيز على التطور السياسى، بسبب فقد العديد من المصادر بعد طرد العرب ، ثم ان التاريخ الأندلسى له طبيعة سياسية ، ومعظمه حروب وقعت بين المسلمين بعضهم ضد بعض أو بين المسلمين وبين نصارى الشمال ، الأمر الذى دفع الأسبان أنفسهم الى أن يلخصوا تاريخهم الوسيط كله فى أنه تاريخ حركة الاسترداد La Reconquista ، وهى ما يعبر عنها فى بعض الأحيان بمعركة القرون الثمانى La Batalla de Ocho Siglos هذه الطبيعة السياسية لتاريخ الأندلس ، جعلت المصادر حتى فى حال توافرها تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير اليها من بعيد .

* * *

---

(٨٣) دولة الاسلام فى الأندلس ٢٤ ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

(٨٤) الاحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة الخانجى ١٩٧٣ حـ ١ . القسم الأول ص ٩١ — ١٤٣ .

(١١)

لم يقف المؤرخ عند حد الترجمة أو التأليف بل اجتاز الى مجال التحقيق ، وهـو نشـاط بدأه فى مطلع السـبعينات ، وبعد أن أنجز موسوعته فى طبعـاتها المتعددة ، فأخرج كتابين هامين للسان الدين ابن الخطيب ، همـا الاحاطة فى أخبار غرناطة وريحانة الكتاب ونجفة المنتـاب [٨٥] ، والكتابان يقعان على التخوم بين التاريخ والأدب ، وان كانت مساحة الأدب أوفر فى الريحانة • والكتاب الأول ــ كمـا يتضح من اسمه يختص بمدينـة غرناطة واحوازها من جغرافية وخطط وأخبـار ومن نبـه من أهلها وتاريخ الأسرة النصرية الحاكمـة ، أما الريحانة فتضم نبـذا من قدمات كتب ابن الخطيب ورسـائله ونماذج من كتاباته الرسمية ، وبخاصة الصادرة عن سلاطين المغرب والأندلس ومخاطباته لهم ولغيرهم ومجموعا من رسائله وكتبه الصغيرة •

ويلاحظ على عنان فى تحقيقه للريحانة أنه يقف فى معظم الأحوال عند حد المقـابلة بين المخطوطات المختلفة بما يفيـد تصحيح النص ، ونادرا مايخرج الأشعار أو النصوص أو يعلق على حادثة أو يشير الى موضع مدينـه ، وفهارسه تقف عند فهرسين أحدهمـا للبلاد والآخر للأعـلام •

توفر المؤرخ أيضا فى سنى حياته الأخيرة على فهرسة القسـم التاريخى من الخزانة الملكية بالرباط ، وقـد صدر هذا القسم فى عام ١٩٨٠ ، ويتضح جهده فى التعريف بالمخطوط ووصفه وذكر مؤلفـه ، كما يعرف بمحتواه ، ويشير الى نظائره فى المـكتبات الأخرى ، مع

---

(٨٥) القاهرة ط ١ ، الخانجى ١٩٨٠ .

الاحالة الى معـــاجم الفهـــارس العالميـــة ، مثل بروكلمان وسزكين والاسكوريال والمتحف البريطانى وغيرها •

تنتهى الرحلة فى العشرين من يناير ١٩٨٦ •• ونتساءل : هـــل مصـــادفة ينتهى محمد عبد الله عنـــان من تأريخه لثغر عربى ضـــاع وقت يضيع ثغر عربى آخر ؟؟

نتساءل أيضا أين محمد عبد الله عنان من تقدير الدولة ؟؟

فى هذا الزمان الردىء يصير من الـــلائق أن يحظى من هم دون عنان بتقـــدير الدولة ، ويصير من اللائق أيضا أن يحظى هو بتقديرنا، وهذه جائزة وأية جائزة •